مع البيان العربى
فى
عصر النبوة

الأستاذ الدكتور

على البدرى حسين على

عميد كلية اللغة العربية ورئيس قسم البلاغة والنقد

والمشرف على قسم الصحافة والإعلام

جامعة الأزهر - القاهرة ((سابقا))

وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البيان العربى فى عصر النبوة

كان النبى ﷺ يسمع شعر حسان وغير حسان رضى الله عنه من شعراء الجاهلية والإسلام . فالشعر سلاح ماض من أسلحة العرب . ولا ينبغى أن يستغنى عنه فى الجهاد . والشعر كتاب الجاهلية . وديوان أخبارها . وفى الإسلام سلاح ماض ضد الذين عميت بصائرهم ! والنبى ﷺ أفصح العرب . وآل بيته جميعا شعراء . رجالا ونساء . ولكنه كان يحب الشعر الذى يدعو إلى الأخلاق الكريمة !

لقد أعجب النبى ﷺ بقول النابغة الجعدى :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فسأله عن المظهر الذى يرجوه فوق ذلك ؟ فأجاب : الجنة بك يا رسول الله !! فاستحسن ذلك منه . وقال له أجدت لا يفضض الله فاك ! فما سقطت له سن حتى مات ! رضي الله عنه . ولا انفلت بل بقيت ترف غروبه !!

وكان رسول الله ﷺ أرق الناس نفسا وأقواهم حسا . وأدقهم ذوقا . كان يجنح إلى الإيجاز . قال عمار بن ياسر رضي الله عنه . أمرنا رسول الله ﷺ بقصر الخطبة وإطالة الصلاة . وقديما اتفق الناس على أن البلاغة الإيجاز !!

وأثنى رسول الله ﷺ على قول النابغة الجعدى أيضا :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الناس أصدرا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأصلح النبى ﷺ بيت كعب بن زهير . فصار :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف اللـــه مسلول

وكان كعب رضي الله عنه قد قال : " من سيوف الهند " ، ....

وكان النبى ﷺ يحفظ كثيرا من الشعر . سمع رجلا ينشد :

يا أيها الرجل المحول رحله هلا نزلت بآل عبد الدار

فسأل الصديق رضي الله عنه . أهكذا قال الشاعر ؟ فقال الصديق إن صواب البيت يا رسول الله !!

يا أيها الرجل المحول رحله هلا سألت عن آل عبد مناف

فقال صلى اللـــه عليه وسلم هكذا كنا نسمعها !!

وعلى الرغم من الحرب الضروس التى أشعلها المشركون ضد النبى ﷺ ودين اللـــه الحق !! فإنهم ما وجدوا فيه مغمزا بيانيا إطلاقا . ولـــو وجدوه لذكروه . ولو على نحو قريب مما عاب به فرعـــون فصاحة موسى عليه السلام . فيما أشار إليه اللـــه عز وجل بقوله تعالى : ﴿ **أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين** ﴾ (سورة الزخـــرف آية ٥٢) – وقد كان موسى عليه السلام فصيحا . بدليل قوله تعـــالى : ﴿ **وأخى هرون هو أفصح منى لسانا** ﴾ [١] وقوله سبحانه ﴿ **واحلـــل عقدة من لسانى * يفقهوا قولى** ﴾ [٢] . ومما يدل على التذوق النبـوى الكريم للشعر الرصين . إشارته ﷺ لأصحابه . وكانوا يجلسون حولـــه على هيئة حلقات يتلو بعضها بعضا . فيلتفت إلى هؤلاء وإلى هؤلاء !! فأشار إليهم أن اسمعوا قصيدة كعب بن زهير فى الاعتذار ومـــدح

---

(١) سورة القصص آية ٣٤ .
(٢) سورة طه آية ٢٧ ، ٢٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النبى ﷺ و التى بدأها بقوله :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلاّ أغن غضيض الطرف مكحول
ويلمها خلة لو أنها صدقت موعودها أو لوان النصح مقبول

إلى أن يقول :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
فى فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل
شم العرانين أبطال لبوسهم من نسج داود فى الهيجا سرابيل
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

كان إعجاب النبى ﷺ بهذه القصيدة واضحا . وكان استحسانه لها جليا .

والاستحسان وعكسه جوهر النقد السليم . وبخاصة إذا صدر من أبلغ الناس محمد ﷺ . فقد صفح عن كعب بن زهير يومئذٍ وأعطاه بردته !!

واستمع إلى الخنساء واستزادها من الشعر وتأثر تأثرا رقيقا عميقا لشعر قتيلة بنت النضر فى قولها :

أمحمد يا خير ضنء كريمة فى قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

وتقول :

هل يسمعن النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميت لا ينطق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه لله أرحام هناك تمزق (١)

ولو سمع النبى ﷺ شعر قتيلة قبل قتل النضر لمن عليه بالفداء . كما من على سفانة بنت حاتم الطائى . عندما كانت فى سبى طيىء فقالت للنبى ﷺ : إن أبى كان يكرم الضيف ويفك العانى ويساعد المحتاج !! .

فقال ﷺ : " خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق " .

وهكذا ظل النقد الأدبى فى عصر النبوة مُزْدَهِرًا !! – حيث ينظر الناس فى الشعر .

ويفاضلون بين الشعراء . وأقرت قريش بتفوق شاعرية حسان على شعرائهم . وتفوقه ﷺ على شعراء بنى تميم أيضا حتى قال الأقرع بن حابس : " والفضل ما شهدت به الأعداء " .

والله إن هذا الرجل (النبى ﷺ) لمجدود . فشاعره أشعر من شاعرنا وخطيبه أخطب من خطيبنا وأصواتهم أفضل من أصواتنا !! وبقى النقد يومئذ تعبيرا فطريا عن الإحساس بالبلاغة وسحر البيان !! وكانت أسباب الإحسان معروفة عند الجميع . نظرا لشيوع الفصاحة والبلاغة ! وسلامة اللغة . وبلاغة القريحة . ثم دونت أسباب هذا الحسن فى عصور التدوين !! وكان استحسان البيت أو النص . دليلا على قوة ألفاظه وسلامتها مما يعاب كما كان دليلا على قوة نظمه وبلاغة أساليبه وصحة معانيه .

فلو وجد شىء يعاب لصحح فى وقت إنشاده . كما صحح الصديق ﷺ لمن قال له : لا يرحمك الله فقال الصديق ﷺ : قل لا ويرحمك

---

(١) سيرة النبى صلى الله عليه وسلم لابن هشام جـ ٢ ص ٢٠٠ " اشعار غزوة بدر " .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الله . وكان الصديق يسأله هل يبيع الثوب الذى فى يده ؟ وكما صحح الفاروق عمر ﷺ . لغلام أخطأ فى الرمى . فدله على الصواب . فقال الغلام : يا أمير المؤمنين : نحن متعلمين . والصواب . متعلمون . فقال الفاروق ﷺ للفتى : يا غلام : لخطؤك فى كلامك أشد علينا من خطئك فى نضالك !!

كان النقد العربى يومئذ وجيزا . مرده إلى الاستحسان أو الاستقباح مع الاعتماد على الذوق السليم . والنظم الذى يحظى بالاستحسان العام يدل على جودة مفرداته وجمله وأساليبه وعلى مناسبتها للظرف الذى قيلت فيه . وكان الذوق السليم فيصلا فى هذه الأحكام العامة .

الشعر والنقد فى ميزان الإسلام

يرفض الاشتغال بالشعر بعض العلماء لما فيه من سخف وهزل . وهجاء . وسب . وكذب وباطل . ولأن أخلاق الشعراء . رديئة فى الغالب . بدليل قوله تعالى : ﴿ **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين (٢٢١) تنزل على كل أفاك أثيم (٢٢٢) يلقون السمع وأكثرهم كاذبون (٢٢٣) والشعراء يتبعهم الغاوون (٢٢٤) ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون (٢٢٥) وأنهم يقولون مالا يفعلون (٢٢٦) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾ (سورة الشعراء الآيات من ٢٢١ إلى ٢٢٧) وفى هذه الآيات الكريمة !

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذم الله تعالى الشعراء ثم استثنى !! والشعراء المسلمون من الصنف المستثنى " الأخيار " ولا ينبغى أن يذم الشعر عامة من أجل ما فيه من سخف " بلا استثناء " فإن الله تعالى قد استثنى ... ولو ذم الشعر كله لذم الكلام كله . ففيه حق وباطل ، ولفضل الخرس على النطق . والعى على البيان . والكلام شعر ونثر . والشعراء قليلون ورجال النثر كعدد الرمل .

ولو جمع السخف والظلم فى النثر فى عصر واحد لأربى على جميع سخافات الشعراء فى جميع العصور . فهل يحرم النثر على الناس من أجل هذا ؟

والمسلم يختار لنفسه . ويدع ما يكره من الشعر إلى ما يحب وشأنه فى الشعر . شأنه فى النثر . يختار الجيد ويترك الردئ !! والحق أحق أن يتبع فى الشعر أو فى النثر !! وراوى الشعر . حاك . وليس على الحاكى عيب . ما لم ينصر باطلا .، أو يسؤ مسلما . والله تعالى قد حكى أقاويل الكافرين فى كتابه الكريم . وقال الناس : إن حاكى الكفر من الناس ليس بكافر !!

وقد استشهد العلماء رحمهم الله تعالى لغريب القرآن بالآبيات من الشعر وفيها غزل فاحش أحيانا ! ولم يعبهم أحد . وكان الحسن البصرى . وهو أوعظ الناس يستشهد بأبيات فى مواعظه ومن أوجعها عنده قول الشاعر :

إن النساء وإن نكرن بعفة ... فيما يظاهر فى الأمور ويكتم

لحم أطاف به سباع جوع ... ما لا يذاد فإنه يتقسم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا تأمنن أنثى حياتك واعلمن أن النساء وما لهن مقسم

اليوم عندك دلها وحديثها وغدا لغيرك كفها والمعصم

كالخان تسكنه وتصبح غاديا ويحل بعدك فيه من لا تعلم

فاستحسان الحسن البصرى رحمه الله تعالى للشعر دليل على جواز روايته ، وقبل الحسن البصرى رحمه الله تعالى كان الفاروق عمر رضى الله عنه يتمثل بالشعر أيضا .

فقد أتى ﷺ بحلل من اليمن . فأتاه أربعة رجال (محمدين) كل منهم يسمى محمدا . " محمد بن جعفر بن أبى طالب ، محمد بن أبى بكر الصديق ، محمد بن طلحة بن عبيد الله . ومحمد بن حاطب "

فجاء زيد بن ثابت ﷺ جميعا فقال :

يا أمير المؤمنين . هؤلاء المحمدون بالباب ، يطلبون الكسوة ! فقال : ائذن لهم . فدعا بحلل ! فأخذ زيد أجودها . وقال : هذه لمحمد بن حاطب . وكانت أمه عنده (زوجة له) فقال عمر رضوان الله عليه :

أيهات أيهات . وتمثل بشعر عمارة بن الوليد :

أسرك لما صرع القوم نشوة خروجى منها سالما غير غارم

بريئا كأنى قبل لم أك منهم وليس الخداع مرتضى فى التنادم [١]

ردها . ثم قال ﷺ :

جئنى بثوب . فألقه على هذه الحلل . وقال : أدخل يدك فخذ حلة وأنت لا تراها . فأعطهم !! فلو منع الإسلام رواية الشعر لما رواه عمر ﷺ !

---

[١] دلائل الاعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجانى تحقيق محمود شلكر ص ١٣ وما بعدها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٠ قال عبد الملك بن عمير : فلم أر قسمة أعدل منها !!

وبهذا نرى الفاروق عمر ﷺ قدوة المسلمين بعد صاحبه رسول الله ﷺ وخليفته الصديق رضى الله عنه يستشهد بالشعر ويتمثل به . وهو أحرص الناس على كتاب الله تعالى وعلى سنة نبيه ﷺ . وهذا يدل على جواز رواية الشعر . ولو كان جاهليا !! فى الشراب والنشوة !

وأورد الشيخ عبد القاهر الجرجانى بيتين آخرين من أبيات عمارة بن الوليد التى تمثل بها الفاروق عمر ﷺ وهما :

ولسنا بشرب أم عمرو إذا انتشوا ثياب الندامى عندهم كالغنائم

ولكننا يا أم عمرو نديمنا بمنزلة الريان ليس بعائم

يقول الشيخ عبد القاهر رحمه الله تعالى : ورب شىء خسيس توصل به إلى شريف بأن ضرب مثلا فيه وجعل مثالا له . كما قال أبو تمام :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

قال هذين البيتين مجيبا أحد المعترضين . الذين قالوا له لقد شبهت ابن عم النبى ﷺ أحمد بن المعتصم " بأجلاف العرب حين قلت :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

وعكس هذا . فرب كلمة حق أريد بها باطل .

حكى طاووس قال : رجعت يوما من مجلس محمد بن يوسف (شقيق الحجاج) ومحمد يومئذ والى اليمن . فقال طاووس : ما ظننت أن قول سبحان الله . يكون معصية لله حتى كان اليوم .

سمعت رجلا أبلغ ابن يوسف عن رجل كلاما . فقال رجل من أهل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجلس سبحان الله كالمستعظم لذلك الكلام . ليغضب ابن يوسف [١] تزلفا إليه !!

وإذا كان الشعر محتويا على السخف والهزل . والكذب والباطل !!

ففيه أيضا الصدق والحق . والحكمة وفصل الخطاب . وهو مجنى ثمار العقول والألباب . ومجمع فرق الآداب .

ينقل مكارم الأخلاق من الوالد إلى الولد . وترى به آثار الماضين مخلدة فى الباقين . إن الذين ينكرون الشعر يحتجون بقول النبى ﷺ : " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا فيريه . خير له من أن يمتلئ شعرا " [٢] .

وفى بعض الروايات . مما هجيت به . وبها يتضح المراد النبوى الكريم . ولهذا فإن جميع الأشعار التى هجى بها النبى صلى الله عليه وسلم قد طرحها المسلمون وما بقى منها إلا أبيات متناثرة هنا أوهناك كقول هبار بن الأسود :

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام

ويتناسى المنكرون . أن النبى صلى الله عليه وسلم . قد استمع إلى الشعراء مرارا وتكرارا .

وقال : إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة .

وقال لحسان بن ثابت رضى الله عنه : قل وروح القدس معك !! أهج المشركين وجبرائيل معك ، إذا حارب أصحابى بالسلاح . فحارب

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٣٩٥ ، دلائل الإعجاز ... شاكر ص ١٥ .
(٢) الحديث رواه الترمذى وابن ماجة وأحمد .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنت باللسان ! (١)

وعن جابر ﷺ أن النبى ﷺ قال يوم الأحزاب : من يحمى أعراض المسلمين ؟ فقال كعب ... أنا يا رسول الله . فقال : إنك محسن الشعر . فقال حسان أنا يا رسول الله . قال نعم اهجهم ... فسيعينك روح القدس .

وبهذا يبدو بجلاء أن النبى ﷺ قد استمع للشعر وأمر به . للرد على المشركين . وقال ﷺ لكعب بن مالك :

ما نسى ربك . وما كان ربك نسيا شعرا قلته ! . قال : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أنشده يا أبا بكر . فأنشده رضوان الله عليه قوله :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليغلبن مغالب الغلاب

والسخينة طعام غير طيب يؤكل فى زمن الجدب من شدة القحط . وهزال الأنعام . فعيرت قريش بأكلها " السخينة " وكان صلى الله عليه وسلم يعجبه قول عمه أبى طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يطوف به الهلاك من أل هاشم ... فهم عنده فى نعمة وفواضل

ثمال اليتامى غياث لهم . ويحفظ الأرامل أيضا إنه الصادق الأمين . المطبوع على كل المثل العليا ﷺ ولما نظر ﷺ إلى أئمة الكفر مصرعين يوم بدر . قال للصديق ﷺ : لو أن أبا طالب حى لعلم أن أسيافنا قد أخذت بالأنامل . لقول أبى طالب :

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كذبتم وبيت الله إن جد ما أرى لتلتبسن أسيافنا بالأنامل

وينهض قوم فى الدروع إليهم نهوض الروايا فى طريق حلاحل

والروايا . الأبل التى تحمل الماء فى المزادات . وكل هذا يدل على أن الشعر كالنثر . حلاله حلال . وحرامه حرام !

وقال محمد بن مسلمة الأنصارى :

كنا يوما عند رسول الله ﷺ فقال لحسان : أنشدنى قصيدة من شعر الجاهلية . فإن الله تعالى . قد وضع عنا آثامها فى شعرها وروايته !! وهذا من أوضح أدلة الجواز !! فأنشده قصيدة للأعشى هجابها علقمة بن علاثة :

ومطلعها قوله :

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر

فقال ﷺ : يا حسان لا تعد تنشدنى هذه القصيدة بعد مجلسك هذا !

فقال : يا رسول الله . تنهانى عن رجل مشرك مقيم عند قيصر ؟

فقال ﷺ . يا حسان : أشكر الناس للناس أشكرهم لله تعالى . وإن قيصر سأل أبا سفيان بن حرب عنى فتناول منى . وفى رواية فشعث منى ! وإنه سأل هذا عنى فأحسن القول ! فشكره رسول الله ﷺ على ذلك . وهذا نقد نبوى كريم قائم على الوفاء . ومقابلة الإحسان بمثله . وهو حفظ واضح للجميل . فقصيدة الأعشى جيدة السبك ومعانيها هجاء لرجل قال خيرا فى النبى ﷺ عند هرقل . فحفظ النبى صلى الله عليه وسلم له هذه اليد . فقال حسان يا رسول الله : من نالتك يده وجب علينا شكره !! إن رسول الله ﷺ إمام الأوفياء . وحرى بالشعراء والناس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جميعا أن يستفيدوا من هذه القدوة الحسنة !!

وقالت عائشة رضى الله عنها كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يقول أبياتك ؟ فأقول :

ارفع ضعيفك لا يحربك ضعفه يوما فتدركه العواقب قد نمى
يجزيك أو يثنى عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

قالت رضى الله عنها :

فيقول رسول الله ﷺ : يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده : صنع إليك عبدى معروفا فهل شكرته عليه ؟ فيقول يا رب علمت أنه منك . فشكرتك عليه ! قال : فيقول الله عز وجل : لم تشكرنى إذ لم تشكر من أجريته على يده .

وكان ﷺ أعلم الناس بالشعر ولكنه لا يقوله لأن الله تعالى قال ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** ﴾ (سورة يس آية ٦٩) . روى أن أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضى الله عنها قالت : متمثلة بقول الشاعر :

.... عدى وتيم تبتغى من تحالف

فظنت عائشة وحفصة أنها عرضت بهما !! فجرى بينهن كلام !! فدخل رسول الله ﷺ عليهن . وقال : يا ويلكن . ليس فى عديكن وتيمكن قيل هذا !! وإنما قيل هذا فى عدى تميم وتيم تميم وهو لقيس بن معدان الكليبى من بنى يربوع : يقول :

فحالف ولا والله تهبط تلعة من الأرض إلا وأنت للذل عارف
ألا من رأى العبدين أو نكرا له عدى وتيم تبتغى من تحالف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا يدل على علمه ﷺ بأشعار العرب . واستحسان الحسن منها ٠

وقد روى مرفوعا :

" إنما الشعر كلام فحسنه حسن . وقبيحه قبيح "

وأجمع البلغاء على أن النبىﷺ كان أفصح العرب وأعلم الناس باللغة !! حتى قال الشافعى رحمه اللـــه تعالى : لا يحيط باللغة إلا نبى ٠

هذا وقال منكرو جواز رواية الشعر : إنه لا يمكن طلب ما لا يكـــره من الشعر حتى يلتبس بما يكره منه !

والجواب : هذا شىء لا يعتد به . لأن المكروه هو طلـــب المكـــروه لذاته . عمدا .

فأما مجيئه عرضا . فلا ذنب فيه " إن شاء الله " بعد ما عرضنا مـــن سماع النى ﷺ للشعر ونقده له . وأمره به . وحكمـــه فيـــه . ودعائـــه بالعون لحسان ... وأن يؤيد بروح القدس . والله تعالى لم يجعل نبيه ﷺ شاعرًا وهو الذى علم الشعراء والخطباء وهو الـــذى علـــم القـــارئين والكاتبين . فكانت الحجة أبهر وأقـــهر !! والدلالـــة أقـــوى وأظـــهر . وللجاحد أكعم . وللمعاند أقمع ٠

وأما أخلاق الشعراء فيقال فيها ما قاله الله تعالى ﴿ **كل امـــرئ بمـــا كسب رهين** ﴾ ولا ينبغى أن تحمل ذنوب الشعراء على الشعر نفســـه . ولا يساغ ذم القول من أجل قائله !! وقد قال ﷺ ما معنـــاه " الحكمـــة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها " وقد استثنى الله تعالى مـــن ذم الشعراء ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملـــوا الصالحـــات وذكـــروا الله كثـــيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا** ﴾ وكان الصديق رضي الله عنه يسمع الشعر الحســـن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أيضا وفى بعض الروايات . أنه كان ﷺ يستحسن شعر النابغة الذبيانى . وكان يسمع بعض أشعار طيئ فى رثاء الربيع وعمارة ابنى زياد العبسيين ومنها :

فإن تكن الحوادث جربتنى فلم أر هالكا كابنى زياد
هما رمحان خطيان كانا من السمر المثقفة الصعاد
تهال الأرض إن يطآ عليها بمثلهما تسالم أو تعادى

ويثنى على ما فيها من معان جيدة وألفاظ محكمة .

وقرئ عليه رضوان الله عليه أبيات لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية ترثى أباها تقول :

قد كنت لى جبلا ألوذ بظله فتركتنى أضحى بأجرد ضاحى
فاليوم أخضع للذليل وأتقى منه وأدفع ظالمى بالراح
وأغض من بصرى وأعلم أنه قد بان حد فوارسى ورماحى

فتأثر كثيرا لروح الحزن فى الأبيات :

وقيل : إن هذه الأبيات تمثلت بها عائشة رضى الله عنها بعد وفاة النبى ﷺ , ومن هذا العرض السابق يتجلى بوضوح وجه الحق . وهو جواز رواية الشعر النافع غير الضار – والله أعلم .

هذا وقد جاءت امرأة إلى الفاروق عمر ﷺ فقالت : يا أمير المؤمنين إن زوجى يصوم النهار ويقوم الليل . وأنا أكره أن أشكوه [1] فقال الفاروق رضوان الله عليه نعم الزوج زوجك . فكررت القول !! فكرر عليها الجواب !! محاولا . إرضاءها !! فقال كعب الأسدى : يا أمير

(١) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ١٤ ، ١٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المؤمنين . إنها تشكو مباعدته لها عن فراشه . فقال له العبقرى الفذ ﷺ وهو يدرك قولها بعناية : كما فهمت فاقض بينهما . وجئ بزوجها فقيل له : إنها تشكوك !! فقال : أفى طعام أم شراب ؟ قال : لا ...

فقالت المرأة :

يا أيها القاضى الحكيم رشده ... ألهى حليلى عن فراشى مسجده

زهـــده فى مضجعى تعبده ... فاقض القضـــا كعب ولا تردده

نهـــاره وليـــله ما يرقده ... فلست فى أمـــر النساء أحمده

فقال زوجها العابد :

زهدنى فى فرشـــها وفى الحجل ... انى امرؤ أذهلنى ما قد نزل

فى سورة النحل وفى السبع الطول ... وفى كتاب الله تخويف جلل

فقال القاضى (كعب الأسدى) :

إن لها حقا عليك يا رجل ... نصيبها فى أربع لمن عقل

فأعطها ذاك ودع عنك الطل

لقد أحل اللـــه لك من النساء مثنى وثلاث ورباع . فلك ثلاثـــة أيـــام بلياليهن للعبادة والرابع حق للزوجة . وفى رواية : للعبادة يوم وللمـــرأة يوم . وقد أعجب الفاروق عمر بفطنة قاضيه . فولاه قضاء البصـــرة . رضى اللـــه عن الجميع .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان عصر النبوة فياضا بالشعر . بسبب ضراوة شعراء المشركين فى هجومهم زورا وبهتانا على شخص النبى ﷺ . وعلى كبار أصحابه . وشعرائه ﷺ وبسبب تجريحهم لأعراض المسلمات الطاهرات . كقولهم : إنهن هاجرن لأنهن يعشقن رجالا فى يثرب . ويرمونهن بالفجور . وكن أطهر من الماء فى جو السماء !!

ورمى المشركون حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ بتهم باطلة . يقول أمية بن خلف يهجو حسان : ﷺ :

ألا من مبلغ حسان عنى مغلغلة تدب إلى عكاظ
أليس أبوك فينا كان قينا لدى القينات فسلا فى الحفاظ
يماتيا يظل يشد كيرا وينفخ دائبا لهب الشواظ

وغاب عن أمية بن خلف أن المهن الشريفة لا عيب فيها !! إنما العيب فى الجرائم والمظالم !! فرد عليه حسان بقوله :

بنيت عليك أبياتا صلابا كاسر الوسق قفص بالشظاظ
مجللة تعممه شنارا مضرمة تأجج كالشواظ
كهمزة ضيغم يحمى عرينا شديد مغارز الأضلاع خاظى
تغض الطرف إن ألقاك دونى وترمى حين أدبر باللحاظ [1]

وحسان هنا موفق كل التوفيق فى ألفاظه ومعانيه !!

---

(١) الوسق . طائر . الشظاظ . الأربطة . الشنار . العار . الشواظ . النار . الهمزة . الضغطة . الضيغم . الأسد . خاظى . مكتنز اللحم . اللحاظ جمع لحظ . والمراد النظرات !! وروى البيت الثانى هجوتك فاختضعت لها بذل بقافية تأجج كالشواظ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولعل هذا الهجاء من أوائل ما يسمى بالنقائض فى الشعر العربى ٠ وهو الفن الذى تطور فى العصر الأموى إلى نحو موجع مؤسف . هتك الأعراض وجرح المحصنات الغافلات المؤمنات . وربحت منه اللغة آدابا رائعة !! وصورا من النقد جديرة بالقبول والإعجاب لولا ما فيها أحيانا من إسفاف ٠

الصراع الشعرى العنيف

هذه المناقضات بين شعراء مكة المشركين يومئذ وشعراء المدينة المنورة المسلمين كانت تدعو إلى النقد . والحكم . والأقرار ٠ والأذعار ٠

وكان النقاد يقدرون ما فى هذا التهاجى من صور أخاذة بالألباب ٠ وما فيه من قوة . أو لذع وإيلام ٠

وكانت قريش تجزع كل الجزع من ضربات حسان الموجعة التى كانت تصيب المشركين فى مقتل . وكانت لا تبالى كثيرا بأشعار غيره ٠

وقد قال النبى ﷺ لحسان " أهجهم وروح القدس معك ! ولكلامك أشد عليهم من وقع السهام فى غلس الظلام " وأمره ﷺ أن يسأل أبا بكر ﷺ عن مخازى المشركين فدله عليها ... !! فقال شعراؤهم وقادتهم ٠ هذا شعر . ما غاب عنه ابن أبى قحافة . كان حسان ﷺ خير مدافع

عن رسول اللـــه ﷺ . وصحابته ﷺ . وخير مدافـــع عـــن أعـــراض المسلمات الطاهرات رضى اللـــــه عنـــهن !! فكـــان يقـــابل تجريـــح المشركين للمسلمين بتجريح أشد . فيطعن أنسابهم ويشكك فى أعـــراض أمهاتهم . ويرميهم رجالا ونساء بالفحش والديائة ودنـــاءة الأحســـاب والأنساب !! ويصور قادة المشركين على أنهم مجموعة لئيمة من أبنـــاء الزنا !!! فلا حق لهم فى هذه الضراوة المنكودة التـــى يواجـــهون بـــها أطهر الناس وخير الناس فى جميع صفات الناس خاتم المرسلين ﷺ !! فلا أرض ولا عرض ولا نسب ولا قبيلة ولا شىء ... الـــخ . كـــانت ضربات حسان تصيبهم بالدوار . وكانت تنال من العزة الجاهلية نيـــلا أليما فالذى يفتخر بأبيه وجده من السادة الأماجد فى زعمه يقـــول لـــه حسان : تريث !! قف يا هذا لا تفخر !! . وسل أمك : من ابـــوك ؟. وهذا على المشركين موجع محزن !! ومـــهلك مبـــير !! فـــى جميع العصور . كانت ضربات حسان موجعة نالت مـــن العـــزة الجاهليـــة وألحقتها بالرغام !! وكان عبد اللـــه بن رواحة يعيرهم بالكفر . وهـــذا هجاء ما كان يؤذيهم كثيرا لأنه دين آبائهم وأجدادهم . فلما أسلم بعضهم تألم لما كان فيه من ضلال بعيد !! هذا الضلال البعيد يصـــوره عبـــد اللـــه بن الزبعرى يوم أحد وكان لا يزال كافرا فيقول :

ليت أشـــياخى ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

حـــين ألقت بقباء بركها ... واستحر القتل فى عبد الأشل

فقتلنا النصـف من ساداتهم ... وعـــد لنا مـــيل بدر فاعتدل

وفى هذه القصيدة أيضا قال :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يا غـراب البين أسمعت فقل إنـــما تنطق شيئا قد فعل
إن للخـــير وللشـــر مدى وكـــلا ذلك وجـــه وقبل

وكانوا يرون فى حسان شاعرا من ألد الخصوم . وأعظمهم شـعرا . وأكثر الشعراء تحطيما لمعنوياتهم !! وكان حده أحـد . وشـعره أشـد وميسمه ألذع . من شعر أى شـاعر آخـر . مـن الأنصـار أو مـن غيرهم !!!

وكان الهجاء المر فى نظرهم ونظر الكثيرين قديما أو حديثا . ما تنـاول النساء . وتعرض للحرم والأنساب . لا ما تعرض للكفر والإيمان !!

وبدا حسان ﷺ فى هذه المعـارك كـالطود الشـامخ . لـم ينجـح المشركون فى أن ينالوا منه منا لا يذكر !! وهكذا عاش حسان ﷺ منذ أسلم إلى أن لقى ربه !!

وهو يحمى أعراض المسلمين والمسلمات . ويبعث النبـى ﷺ فـى طلبه حين تفد الوفود . وحين تقرض القوارض أو تقرص القوارص من كتبة الشعراء المشركين . فيطاردهم حسان . ولا يتركهم حتـى يلحـق بهم المذلة والهوان . ويعود الواحد منهم يسأل نفسه . هل هو حقا كمـا يقول حسان ؟ . وهذا أقسى شىء فى الدنيا على الإنسان فى كل زمـان ومكان !!

إن المشركين دائما وفى كل زمان ومكان . هم البادئون بـالعدوان . والشر بالشر والبادى أظلم !! والله تعالى يقول : ﴿ **فمن اعتدى عليكـم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتـدى عليكـم** ﴾ (البقـرة ١٩٤) وشـعراء المشركين تناولوا النبى ﷺ بالهجاء .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهجوا الأنصار معه لأنهم استقبلوه وآزروه ﷺ فرضى الله عنهم وأرضاهم !!

وما استطاع عبد الله بن رواحة . وكعب بن مالك رضى الله عنهما أن يكويا قريشا وأن يصنعا شيئا يشفى نفوس المظلومين . وانما الذى استطاع ذلك . هو حسان بن ثابت ﷺ . الذى شفى وكفى !!

فقد صب على المشركين صواعق الخزى والعار والهوان ... وكان ﷺ يستمع إليه ويستحسن ما يقول !! وكان المسلمون يعتمدون على حسان اعتمادا حقيقيا فى الجهاد باللسان . ولا ريب . فقد كانت الملكة الشعرية فى حسان أنضج منها فى سواه . وكانت معانيه من الأسلحة الماضية فى إهلاك المشركين نفسيا ومعنويا بقوة واقتدار !! وتبدو هذه روح النقد ظاهرة واضحة فى مكة المكرمة . أو فى المدينة المنورة وكان حسان أعظم الشعراء على الجانبين جانب المشركين . وجانب المسلمين فى الشاعرية ومهارة التعبير . فلله دره ﷺ .

شاعر النبوة الفذ رضى الله عنه

الذين يلعبون بالنار لاحق لهم فى العويل إذا اكتووا بلظاها . والمشركون وجهوا نيرانهم صوب النبى ﷺ والمهاجرين والأنصار ﷺ . فأعان الله تعالى الصحابى الجليل حسان بن ثابت فأطفأ نارهم وأوقد نارا أخرى فى قلوبهم فاصطلوا بسعيرها !! وأسلم بعضهم وهلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجرمون ودل الصديق حسان رضى الله عنهما على مخازى المشركين !!

وعرف المشركون ذلك . فقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب عن هجاء حسان لهم : هذا شعر لم يغب عنه ابن أبى قحافة !! كما سبق !! لأن الصديق ﷺ يعرف مخازى المشركين كان حسان بن ثابت رضى الله عنه موجعا فى هجائه أعداء رسول الله ﷺ . وتعرف ضراوة هجائه للمشركين بتأمل قوله لأبى سفيان بن الحارث مثلا : إذ يشككه فى نسبه " وأنساب الجاحدين مغموزة!! " دائما . يقول :

لعمرك إن إلّكَ من قريش ... كبال السقب من رأل النعام (١)

فلا تفخر بقوم لست منهم ... ولا تك كاللئام بنى هشام

ويقول له أيضا :

وإن سنام المجد من آل هاشم ... بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

ولست كعباس ولا كابن أمه ... ولكن هجين ليس يورى له زند

وإن امرأ كانت سمية أمه ... وسمراء مغلوب إذا بلغ الجهد

وقال يهجو الحارث بن هشام أيضا ويرميه بالجبن لعجزه عن الدفاع عن أخيه أبى جهل يوم بدر :

هلا عطفت على ابن أمك إذ ثوى ... قعص الأسنة ضائع الأسلاب (٢)

عجل المليك له فأهلك جمعه ... بشنار مخزية وسوء عذاب

لو كنت ضنء كريمة أبليتها ... حسنى ولكن ضنء بنت عقاب (٣)

---

(١) الأل . الرحم . والسقب ولد الناقة ساعة يولد . والرأل ولد النعام .

(٢) قعص الأسنة قتيلها .

(٣) الضنء . النسل . بنت عقاب . اسماء كان جدها عبدا لبنى تغلب .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنه يسقيه الحسرات . ويرميه بالجبن . ويشكك فى نسب أخيه فهو ابن أمه فقط .

وأمه ليست كريمة !! وقال يهجو ربيعة بن الحارث بن هشام ويضرب الأبناء كما ضرب الآباء ٠

يقول :

أبلغ ربيعة وابن أمه نوفلا أنى مصيب العظم إن لم أفصح

وكأننى رئبال غاب ضيغم يقرو الأماعز بالفجاج الأفيح (١)

إن الخيانة والمغالة والخنا واللؤم أصبح ثاويا بالأبطح (٢)

وهذا من أوجع ما قيل فى الهجاء . وهو على المشركين . كوقع السهام فى غلس الظلام . على حد القول النبوى الكريم ٠

وقال أيضا يهجو والده الحارث بن هشام أيضا :

أجمعت أنك ألام من مشى فى فحش مومسة وزهو غراب

وكذاك ورثك الأوائل أنهم ذهبوا وصرت بخزية وعذاب

فورثت والدك الخيانة والخنا واللؤم عند تقايس الأحساب

وأبان لؤمك أن أمك لم تكن إلا لشر مقارف الأعراب

يرميه بأقصى وأقسى ما يقال فى الهجاء . فهو ساقط . ويزهو بنفسه كالغراب . ولا عجب فهو فى السقوط عريق عريق . هكذا كان أبوه وهكذا كانت أمه !! فما له والأمجاد ؟!! ولهذا قيل : إذا هاجم أحد المثل العليا فهو يتهم أمه ! وقال ﷺ يهجو بنى عابد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أقارب أبى جهل (عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله) ٠

---

(١) الرئبال . الأسد . الأماعز . الأمكنة الصلبة . ويقرو يتبع .
(٢) المغالة . الوشاية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مبين الغى لا يعيا عليه ويعيا بعد عن سبل الرشاد
علام قام يشتمنى لئيم كخنزير تمرغ فى رماد
فأشهد أن أمك ملبغايا وأن أباك من شر العباد
فقبح عابد وبنو أبيه فإن معادهم شر المعاد
مهاجنة إذا نسبوا عبيد عضاريط مغالثة الزناد [1]

إن الخنزير قذر بخلقته . فكيف بقذارته وقد تمرغ فى رماد ؟ إن المهجو . يألف الغى ويعيا عن الرشاد وكذلك إخوته إنهم مهاجنة عبيد جبناء لا خير فيهم من كرم ولا عقل ولا شجاعة . ولا أصل ولا حسب ولا نسب !! فهذه أمهاتهم وتلك آباؤهم . رجس ودنس . فما لهم وحرب النبى ﷺ ؟!!

وقال يهجو أبا جهل فرعون هذه الأمة : عليه اللعنة !!

لقد لعن الرحمن جمعا يقودهم دعى بنى شجع لحرب محمد
مشوم لعين . كان قدما مبغضا يبين فيه اللؤم من كان يهتدى

أبو جهل . قائد الظلام يوم بدر . جدير بتهكم حسان . إنه دعى غير شريف . ملعون هو ومن معه مشؤوم فى القديم وفى الحديث . ويعرف اللؤم فى وجهه كل ناظر إلى هذا الشيطان الأنسى الخبيث ذى الوجه البغيض .

قال تعالى : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (التوبة ٣٢) .

---

[1] منبغايا . منهن . المعاد . المصير . مهاجنة . من الهجنة . أبناء الجوارى الأعجمية . العضاريط جمع عضروط . وهو من يعمل بطعامه فقط . مغالثة . من قولهم غلث الزند . ولم يور . اى هم لئام لا خير فيهم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن هجائه الشديد للحارث بن هشام . قوله :

طحنتهم والله ينفذ أمره حرب يشب سعيرها بضرام

لولا الإله وجربها لتركنه جزر السباع ودسنه بحوام

فسلحت إنك من معاشر خانة سلح إذا حضر القتال لئام

أما حب حسان للنبى ﷺ فقد كان عميقا دونه كل وصف يقول فى رثائه ﷺ :

كان الضياء وكان النور نتبعه بعد الإله وكان السمع والبصرا

يشبه النبى ﷺ بالضياء وبالنور ٠ وبالسمع والبصر ٠ وحقا إنه كذلك !! وحب حسان رضي الله عنه للنبى ﷺ يغيظ المشركين كثيراً ٠٠٠ قال أبوسفيان ما رأينا رجلا يحب أصحابه ويحبه أصحابه ٠ كما يحب محمد أصحابه وكما يحب أصحاب محمد محمداً "ﷺ" ٠ وقال أحد الأنصار :

أسرت قريش مسلما فى غزوة فمضى بلا وجل إلى السياف

سألوه هل يرضيك أنك سالم ولك النبى فدى من الأتلاف

فأجاب لا ولن تكون سلامة ويصاب أنف محمد برعاف

وقال حسان عن بنى الحماس :

شبه الأماء فلا دين ولا حسب لو قامروا الزنج عن أحسابهم قمروا

وقبله شكك زهير فى آل حصن فقال :

وما أدرى ولست إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

فمن فى كفه منهم خضاب كمن فى كفه منهم قناء

أما حسان فهو يجزم بأن المشركين أشباه النساء " الأماء لا الحرائر " !!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهجاؤه أشد ... !!

وقال لواحد من بنى العاص بن وائل :

ما بال أمك زاغت عند ذى شرف إلى جـــذيمة لما عفت الأثرا

ظـلت ثـــلاثا وملحان معانقها عند الحجون فما ملا وما فترا

إن ضرب أعراض الأمهات . تشكيك بين فى صحة نسب البنين . فما لهم لا يستحون ؟!! وهكذا يسخر شاعر رسول اللـــه ﷺ من الكفر والكافرين ويجعلهم أضحوكة على مر الزمن !! إلا من أسلم فالإسلام يجب ما قبله . وقال يهجو هند بنت عتبة التى أكلت كبد حمزة سيد الشهداء رضي الله عنه :

أقبـــلت زائـــرة مبادرة بأبيـــك وابنك يوم ذى بدر

وبعـــمك المسلوب بزته وأخيك منعفرين فى الجفر [1]

ونسيت فاحشة أتيت بها يا هنـــد ويحك سبة الدهر

زعم الولائـــد أنها ولدت ولـــدا صغيرا كان من عهر

وفى الديوان أشعار أعنف وأضرى وأنكى من هذه الأشعار " ضد هنـــد بنت عتبة خصوصا " والمشركين عموما وركز حسان هجاءه على بنـــى المغيرة قوم أبى جهل بن هشام بن المغيرة .

يقول :

هلا منعتم من المخزاة أمكم عند الثنية من عمرو بن يحموم

بنو المغيرة فحش فى نديهم توارثوا الجهل بعد الكفر واللوم

ويقول :

---

[1] بزته سلاحه – والجفر البئر . والمراد القليب . وهند . مؤنث ثلاثى ساكن الوسط يجوز فيه الصرف وعدمه .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لعمر أبى سمية ما أبالى أنب التيس أم نطقت حذام

ويقول :

إذا شتـــموا بأمهم تولوا سراعا ما يبين لهم كلام

إن ضربات حسان كوقع السهام فى غلس الظلام كما ورد فى إشـــارة نبوية كريمة .

تأمل قوله :

إذا ما شاتهم ولدت تنادوا أجدى تحت شاتك أم غلام

وقال يهجو هند بنت عتبة بن ربيعة وكانت شاعرة مؤذية أيام كفرها :

لمن الصـــبى بجانب البطحا فى الترب ملقى غير ذى مهد

نجـــــلت به بيضاء آنسة من عبد شـــمس صلتة الخد

تســـعى إلى الصياح معولة يا هنـــد إنـــك صلبةَ الحرد

فإذا تـــــشاء دعت بمقطرة تذكى لـــــــها بألـــوة الهند

غلبت على شبه الغلام وقد بان الســـــواد لحـــالك جعد

أشرت لكـــاع وكان عادتها دق المـــــشاش بنـــاجذ جلد [1]

وقال يهجوها :

---

[1] إنه يرميها بالفحش . وانها ولدت من سفاح . وهى اتهمت بذلك فى الجاهلية عندما كانت متزوجة من الفاكه بن المغيرة (عم أبى جهل) وذهب بها أبوها الى كاهن باليمين . وعلد وقال : إنها بريئة . وزعم أن الكاهن قال لها : انهضى غير رسحاء ولا زانية . وستلدين ملكا اسمه معاوية . وقد شكك النقاد واللغويون فى هذه القصة .

وتجلت بمعنى ولدت . وصلته بمعنى ملساء . والحرد شدة الغيظ . والمقطرة . المجمرة من العطر . والألوة . عود طيب هندى . يتبخر به . والجعد الشعر الاسود المجعد . واللكاع اللئيمة . والمشاش العظم الذى لا مخ فيه . والناجذ . الضرس . والجلد . الصلب .

وهند . اسم مونث ثلاثى ساكن الوسط (معنوى) يجوز فيه الصرف وعدمه قال الشاعر :

لم تتلفع بفضل مئزرها دعد ولم تسق دعد فى العلب

والمعنى الذى يشير إليه حسان ﷺ سواء صح أو لم يصح . موجع لجميع أقارب هند بنت عتبة على الرغم من كونها قد اسلمت بعد ذلك ! وقد تكون الابيات لغير حسان بن ثابت . ولكنها موجودة فى ديوانه ﷺ . ومنسوبة إليه !!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لمن سواقط صبيان منبذة بلتت تفحص في بطحاء أجياد
بلتت تمخض ما كلتت قوابلها إلا الوحوش وإلا جنة الوادى
فيهم صبى له أم لها نسب فى ذروة من ذرا الأحساب أياد
تقول وهنا وقد جد المخاض بها يا ليتنى كنت أرعى الشول للغادى
قد غادروه لحر الوجه منعفرا وخالها وأبوها سادة النادى (١)

وكانت هذه النار الشعرية المشتعلة بين المؤمنين والكافرين مدعاة للنقد والموازنة والمنافسة . وبرزت شاعرية حسان ﷺ فى شعر الجهاد فقد تفوق على جميع شعراء المشركين . وكان أيضا أشعر شعراء المسلمين !! وكانت ضرباته موجعة مسكتة وهكذا يكيل حسان ﷺ للمشركين الصاع صاعين . والمشركون إن وجد فيهم عفيف واحد . فإنه نادر يحفظ ولا يقاس عليه . ولماذا يعف المشرك ؟ هل هو يؤمن بالآخرة ؟ هل يؤمن بلقاء الله تعالى ؟ . وهذا خلق كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب . إذا كان لا يؤمن . فماذا يدعوه إلى العفة والأمانة ؟

---

(١) منبذة . مطروحة . تفحص . تتحرك بسرعة فى التراب أجياد مكان بمكة أمام المسجد الحرام وفيه الآن مستشفى تعرف بمستشفى أجياد . تمخض من وجع الولادة . الجنة . الجن . أياد قوى من الأيد . وهنا ضعفا . الشول . النوق . جمع شولة . وهى الناقة التى خف لبنها . حر الوجه . وجنتاه . منعفرا . ممرغا فى التراب .

والشاعر يرمى المشركين جميعا بالدنس . وأنهم بلغوا من الخسة والدناءة بحيث ينتهك بعضهم أعراض بعض . ولن يكف مشرك عن ذلك أبدا . وينبه حسان ﷺ إلى أن السواقط كثيرات . وأن المواليد من سفاح قد كثروا أيضا .

فأين الشرف ؟ وأين الجاه ؟ وأين السيادة ؟ إن ذلك كله هراء ساقط مردود على أصحابه !! ولا وجود له إلا فى تصوراتهم المجنونة !!

إن واحدة من هؤلاء جاءت بصبى من سفاح . ولها نسب قوى فى ذرا الأنساب وأنها ندمت على فطنتها بعد فوات الأوان !! وكانت تتمنى أن تكون راعية نوق بالبادية ولا يحدث منها ما حدث !! وغودر أطفال السفاح ... والحال ان واحدة من السواقط . تزعم أنها ماجدة كريمة من جهتى الأب والأم . وخالها وأبوها سادة النادى .

فأين السيادة وأين التربية ؟ وما شأن أبيها وخالها بالأمجاد ؟ إذا كان الحال على ما وصف حسان !! إنها حقا ضربات موجعة مهلكة !! سواء قالها حسان أو نسبت إليه !! وهى فى النقد العربى من أوجع ما قيل فى الهجاء !!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا شيء . إنهم يستحقون الضربات التى وجهها إليهم حسان بن ثابت ﷺ !! فتركهم يتشككون فى أنفسهم التى بين جنوبهم !! فللـــه دره مـن مجاهد ﷺ ٠

النقد وإعجاز القرآن

أحس الفصحاء منذ نزول القرآن الكريم ببلاغته المعجزة .

فقد تحداهم أن يأتوا بمثله . أو بمثل عشر سور من مثله . أو بمثـــل أقصر سورة منه فعجزوا عن ذلك كله وعرفوا أنـــه ليـــس شـــعرا ولا سحرا ولا كهانة ولا أساطير ووازنوا بينه وبين أدبهم . فشـــهدوا بأنـــه أبلغ من كلامهم . وإن كان من جنسه فى الحروف والكلمات والجمـــل والأساليب ٠

والذين حاولوا غمز المفردات القرآنية فشلوا فشـــلا ذريعـــا . وهـــذا العمل لا يقوم به إلا شيطان من شياطين الأنس ٠

كالذى عاب الفعل الماضى أكل فى قوله تعالى ﴿ **فأكلـــه الذئـــب** ﴾ وقال : إن الحيوان المفترس يناسبه " افترسه الذئـــب " وبيـــن العلمـــاء المسلمون رحمهم اللـــه تعالى .

أن الفرس بسكون الراء لا يفيد أكثر من القتل . وهذا لا يكفى فى مقـــام الآية الكريمة . لأن يعقوب عليه السلام لو قال له أبناؤه المتآمرون على أخيهم حقدا وحسدا . إن يوسف قد افترسه الذئب . لقال لهم . إذن هاتوا لى الجثة . وهم قد أرادوا الكذب على أبيهم . فـــأخبروه أن يوســـف لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأن لا وجود له . حيا ولا ميتا. وهذا لا يؤديه إلا اللفظ القرآنى " أكل " فى قوله تعالى : ﴿ ... **فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين !!** ﴾ (١) .

والقرشيون الكافرون كانوا أفصح من أخلافهم الجاهلين فى المشارق والمغارب فى القرون المتعاقبة ! وكانوا أكثر منهم علما باللغة العربية . فلو وجدوا مغمزا بلاغيا فى القرآن الكريم لذكروه . وهم لم يذكروا ... فدل ذلك على سلامة القرآن الكريم سلامة تامة مطلقة من كل عيب من عيوب الكلام .

وهذا هو أحد زعماء الشرك فى مكة الوليد بن المغيرة يقول :

تقولون : إن محمدا مجنون . وقد ولد بين أظهركم ! فهل رأيتموه يخنق ؟ فكيف يكون مجنونا ؟ وقلتم شاعر !! وأنتم شعراء . فهل أحد منكم يقول مثل ما يقول ؟ . وقلتم كاهن ! فهل حدثكم فى شىء يكون غدا إلا أن يقول إن شاء الله !

قالوا فما تقول يا أبا المغيرة . فقال دعونى حتى أفكر . وبعدها قال الكفور : ساحر ... (٢) وكلمات الوليد هذه تشهد بتفوق القرآن الكريم على الشعر والنثر . والوليد نفى كونه شعرا . أو نثرا مسجوعا على غرار أساليب الكهنة .وجاء الرد على هذا الكفور فى سورة المدثر الآيات من ١١ : ٢٦ .

وقال عتبة بن ربيعة : إنى سمعت من محمد قولا والله ما سمعت بمثله قط . وما هو بالجنون . وما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة

---

(١) سورة يوسف آية ١٧ .

(٢) الرسالة الشافية فى الإعجاز طبعة محمود شاكر ص ٥٨٤ (الإمام عبد القاهر الجرجانى)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونفى الكهانة يعنى نفى النثر المسجوع !!

ثم قال : يا معشر قريش : أطيعونى : خلوا بين هذا الرجل . وما هو فيه واعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم . وإن يظهر به على العرب . فملكه ملككم وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك بلسانه . قال : هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم !! وهذا نقد يتوسط بين الذاتية والموضوعية !!

وقال أنيس الغفارى رضي الله عنه : .... الناس يقولون عن النبى ﷺ : شاعر . ساحر . كاهن . فقال له شقيقه أبو ذر رضى الله عنهما : فما رأيك وأنت شاعر ؟

فقال : لقد وضعت قوله على أقراء الشعر (بحوره) فلم يلتئم على لسان أحد . وما هو بكاهن ولا شاعر ! وإنه لصادق وإنهم لكاذبون !! وهذا نقد معلل . ينفى كون القرآن شعرا أو سحرا أو كهانة !!

ونسب للوليد بن عقبة . أو للوليد بن المغيرة . هذا الوصف للقرآن الكريم :

" إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة . وإن أعلاه لمثمر . وإن أسفله لمغدق . وإنه ليعلو وما يعلى عليه . وما يقول هذا بشر " . وهذا أقرب ما يكون إلى النقد الذاتى .

وتشهد هذه الأقوال ببلاغة قائليها ودقة أذواقهم كما تشهد بإعجاز القرآن الكريم وتفوقه على جميع ما عرف الناس أو سيعرفون من ضروب الكلام الفصيح البليغ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إيماءات نفسية لمفردات قرآنية

لبعض مفردات اللغة العربية إيماءات نفسية خاصة تحس بها النفس إذا تأملت الأساليب البليغة المؤثرة ويزداد التأثر النفسى . إذا تأملناها فى آيات من القرآن الكريم وهو فوق النقد والمعارضة . وإنما نتأمل النفس هذه المفردات القرآنية . لاستجلاء هداية الله تعالى وتوفيقه !!

إن لفظا قرآنيا واحدا يومئ إلى الصورة النفسية . فتحس بجرسه الأذن . وتشعر بظله الروح ويسعد له الوجدان . تسمع الأذن كلمة " إثاقلتم " .

فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض** ﴾ التوبة ٣٨ .

فتتصور النفس جسما ثقيلا . يرفع فيسقط من الأيدى . ولا يؤدى هذا المعنى " تثاقلتم " .

وفى قوله تعالى : ﴿ **وإن منكم لمن ليبطئن** ﴾ سورة النساء آية ٧٢ نتلو الآية الكريمة فتحس النفس بصورة التبطئة فى جرس الكلمة وإيقاعها . ولا تؤدى هذا المعنى كلمة أخرى وفى قوله تعالى : ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴾ سورة هود آية ٢٨ .

تحس النفس من كلمة ﴿ **أنلزمكموها** ﴾ بجو الإكراه ويساعد عليه كثرة الضمائر وشد بعضها إلى بعض كما يدمج الكارهون . ويشدون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهم نافرون والعياذ بالله تعالى . وهكذا يبدولون من التناسق القرآنى المعجز .

ونسمع كلمة يصطرخون فى قوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور (٣٦) وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل** ﴾ سورة فاطر الآيتان ٣٦ ، ٣٧ .

فيوقع جرسُهُماَ المخيف فى النفس غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان . المنبعث من حناجر تتذكر جرائمها . فهى خشنة الأصوات مفزعة النبرات . ولا تلقى من ملائكة العذاب سوى الإهمال وزيادة الوبال والنكال . وتحس النفس من هذا الاصطراخ صورة العذاب الغليظ فى الجحيم الذى يتلقاه أهل الجحيم .

ومثلها كلمة " **عتل** " فى قوله تعالى ﴿ **عتل بعد ذلك زنيم** ﴾ سورة القلم آية ١٣ . فتحس النفس الإنسانية بشخصية فظة جافية متنطعة . تعترض على الله . وترفض اختياره لأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام .

وإذا سمعت النفس الإنسانية هذه الكلمة القرآنية { بمزحزحه } فى قوله تعالى: ﴿ **وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر** ﴾ إذ يتحدث الله عز وجل عن النفس الإجرامية اليهودية!! فهى نفسية إبليسية تستحق الطرد من رحمة الله قال تعالى﴿ **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون** ﴾ سورة البقرة آية ٩٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن للزحزحة المعروفة حركة نفسية وراء هذه اللفظة المفردة .

ومثلها كلمة " كبكبوا " فى قولـــه تعـــالى : ﴿ **فكبكبـــوا فيـــها هـــم والغاوون** (٩٤) **وجنود إبليس أجمعون** ﴾ سورة الشعراء الآيتـــان ٩٤ ، ٩٥ ويقول حسان رضي الله عنه :

قذفـــناهنم كبـــاكب فى القليب ينادي ـــهم رســـول الله لما

فجرس الكلمة يوحى بالإهانة والإذلال لأهل النار **(فكبكبوا)** .

ومن الأوصاف التى وصف الله تعالى بها يوم القيامة . الصاخـــة . لطامة الكبرى . الواقعة ونحوها . إن هذه الكلمات تكاد تخـــرق الأذن حتى تصل إلى أعماق النفس فى صورة صاخة ملحة . والطامـــة هـــى التى تعم وتطم . كالطوفان . يغمر الوهاد والنجاد . ونسأل الله الســـلامة . والواقعة التى إذا وقعت . فهى الخافضة الرافعة !!

إن هذه الألفاظ إذا قورنت بلفـــظ " **تنفـــس** " فـــى قولـــه تعـــالى : ﴿ **والصبح إذا تنفس** ﴾ سورة التكوير آية ١٨ يحس الإنسان بشىء من الإعجاز النفسى للقرآن الكريم . فالنفس دليل الحياة . علـــى حيـــن أن النوم شبيه بالموت . قال الشاعر عبد العليم القبانى :

رناديكى إلى الأفق الموشى وغـــرد ثم صفق ثم صلحا
ونادى الناس حسبكم رقادا فـــإن الله قد بعث الصبلحا
رقـــادكم ومـــوتكم سواء إذا ما الصبح فى الآفاق لاحا
وعـــاد لعشه يختال تيها فقد أدى التـــحية واستراحا

وتحس النفس بجو النعاس الشفيف الخفيف الذى يغشى الحـــواس فـــى لطف ولين وأمن ودعة وهدوء فى قوله تعالى : ﴿ **إذ يغشيكم النعـــاس**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمنة من وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ﴾ (سورة الأنفال آية ١١) ومن تصوير مفردات اللغة بجرسها سورة الناس :

﴿ **قل أعوذ برب الناس** (١) **ملك الناس** (٢) **آله الناس** (٣) **من شر الوسواس الخناس** (٤) **الذي يوسوس في صدور الناس** (٥) **من الجنة والناس** (٦) ﴾ .

فتحس النفس من كلمات السورة كلها بجو الوسوسة التى لا ينجى منها إلا رب الناس . . . سبحانه وتعالى !! وفى قوله تعالى : ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾ سورة الكهف آية ٥ .

كلمة " كبرت " توحى إلى النفس الإنسانية ببشاعة ما قالوا من أن الله قد اتخذ ولدا . وقد أضمر الفاعل وأعربت " كلمة " تمييزا . ثم جعلها تخرج من أفواههم . فهى تخرج كما تخرج القذيفة ، رمية بلا عقل ولا تفكر . بل هى رمية أسيفة عمياء [١] .

وهناك كلمات قرآنية لها ظلال نفسية واضحة يلحظها الحس البصير حينما يتأملها . منها كلمة " انسلخ " فى قوله تعالى ﴿ **واتل عليهم نبا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها** ﴾ الأعراف ١٧٥ إنها ترسم صورة نفسية للمتملص من الحق لأن الانسلاخ حركة حسية تكشط الجلد عن الذبيحة .

ومثلها كلمة يترقب فى قوله تعالى : ﴿ **فاصبح في المدينة خائفا يترقب** ﴾ سورة القصص آية ١٨ ، إنها ترسم صورة نفسية للإنسان

---

[١] النقد الأدبى أصوله ومناهجه للكاتب العلامة الأستاذ سيد قطب ص ٤٠ : ٤٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحذر المتلفت فى كل مكان . وذلك فى المدينة . وهى مكـــان الأمـــن والأمان وليست كالقرية . . . فموسى عليه السلام أصبح مفزعـــا فـــى مكان الأمان بسبب تهديد الكافرين له .

ومن هذا القبيل كلمة يدعون : فى قوله تعالى : ﴿ **يوم يدعون إلـــى نار جهنم دعا** ﴾ سورة الطور آية ١٣ فالدع هو الدفع فى الظهر بغلظة وعنف يستحقهما كل مجرم كفور ، فيخرج صوتا شبيها بالدع " أع " .

وكلمة " فاعتلوه " فى قوله تعالى ﴿ **خـــذوه فـــاعتلوه إلـــى ســـواء الجحيم** ﴾ الدخان آية ٤٧ . فالعتل له ظل فى النفـــس يبيـــن الإهانـــة والإذلال .

وهكذا تصور الكلمات القرآنية المعانى المرادة منها بجـــلاء تحســـه النفس المستعدة لمعرفة الحكمة وفصل الخطاب . وليس هناك أفصح من مفردات القرآن الكريم ولا من جمله ولا من نظمـــه المعجـــز الأخـــاذ وسبحان من ﴿ **نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشـــعر منـــه جلود الذين يخشون ربهم . ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكـــر الله . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء . ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لبيد و الشعر

لبيد بن ربيعة العامرى . شاعر مخضرم صاحب المعلقة المشـــهورة التى مطلعها :

عفت الديار محـــلها فمقامها بمنـــى تأبد غـــولها ورجامها

يعزل نفسه عن الشعر بعد نزول القرآن الكريم . وما قال سوى بيـت واحد بعد إسلامه وهو :

الحمد لله !! إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

كان لبيد هذا كريم النفس .

إذا هبت الصبا نحو الجزور وأطعم الأيتـــام والأرامـــل والمحتـــاجين وصحبته هذه العادة الكريمة من الجاهلية إلى الإســـلام . وجـــاء عـــام جديب هبت فيه الصبا . وليس لديه إبل ولا غنم !! للبائسين !! وعـــرف صديقه الوليد بن عقبة والى الكوفة بما هو فيه من فاقة فدعا الناس إلـــى التبرع لأخيهم ومساعدته على إحياء جوده فأرسل إليه عددا من الإبـــل.

وهذه الأبيات :

أرى الجـــزاريشحذ شفرتيه إذا هبـــــت رياح أبى عقيل

أشم الأنـــف أبيض عامرى طويل الباع كالسيف الصقيل

وفى ابن الجعفرى بحلفتيه على العـــلات والمال القليل

بنحر الكوم إذ سحبت عليه ذيول صـــبا تجاوب بالأصيل

وشكر لبيد صديقه شكرا نفسيا . ونثريا .

ووقع فى ضائقة شعرية لأنه هجر الشعر حياء من البلاغة القرآنية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المعجزة . ولم ترض ابنته الشاعرة – لأبيها أن يترك شعره العظيم بهذه الصورة !! فقالت لأبيها : يا أبت هذا عفوٌ للمروءة ، وطلبت منه السماح لها بالرد. فوافق فقالت :

إذا هبت رياح أبى عقيل دعـــونا عند هبتها الوليدا

أشم الأنف أروع عبشميا أعـــان على مروءته لبيدا

بأمثال الهضاب كان ركبا عليـــها من بنى حام قعودا

أبا وهب جزاك الله خيرا نحرناها وأطعـــمنا الثريدا

فعـد إن الكريم له معاد وظـــنى بابن أروى أن يعودا

فقال لبيد : أحسنت يا بنية . لولا أنك سالت ! فقالت : إن الملـوك لا يستحيا من مسالتهم ! فقال لها : وأنت فى هذا أشعر ! ! ويفهم من هـذا مديحه للمفردات والجمل والأساليب ووحدة المعنى والوزن والقافية .. .

وهذه صورة من النقد الذاتى الذى يهز النفس هزا عميقا !!

بين الذاتية والموضوعية :

كان الصحابة ﷺ خلف نبيهم ﷺ بصدق وإخلاص فى كـل أمـور العقيدة والشريعة عملا بقوله تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه ومـا نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾ وفى أمور الدنيـا قال لهم النبى ﷺ : " أنتم أعلم بأمور دنياكم " . والنقد الأدبى أمر مـن أمور الدنيا . ولهذا تعددت أراء الصحابة ﷺ فى تذوق الشعر وتفضيـل شاعر على آخر . أو نص على مثله !!

ولهذا اختلف الصحابة والناس من بعدهم فى أى الشعراء أشعر ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

روى أن أمير المؤمنين علياً ﷺ كان يفطر الناس فى رمضان ثم يتكلم فيوجز ويبلغ !! فاختصم الناس ليلة فى أشعر الناس . حتى ارتفعت أصواتهم . فقال رضوان الله عليه لأبى الأسود الدؤلى . قل يا أبا الأسود . وكان يتعصب لأبى دؤاد . فقال : أشعرهم الذى يقول :

ولقد أغتدى يدافع ركنى أحوذى نو ميعة إضريج

مخلط مزيل مكر مفر منفح مطرح سبوح خروج

سلهب شرجب كان رماحا حملته وفى السراة دموج

تتعادى به قوائم لأم وحوام صم الحوافر عوج

مقبلات فى الحزن أو مدبرات بهوى طائع بهن نهيج (١)

وهذا نقد ذاتى يحمل فى طياته استحسان المفردات والجمل والنظم والوزن والقافية ومناسبة النص لما قيل فيه . ويفهم منه أن أبا دؤاد أفضل الشعراء عند أبى الأسود الدؤلى .

ولم يلبث على ﷺ أن أقبل على الناس فقال :

كل شعرائكم محسن . ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد من القول لعلمنا أيهم أشعر ؟ أو أسبق إلى ذلك وكلهم قد أصاب الذى أراد وأحسن فيه !! وإن يكن أحدهم أفضل . فالذى لم يقل الشعر رغبة ولا رهبة . امرؤ القيس ابن حجر . كان أصحهم بادرة وأجودهم نادرة .

وهذا النص البالغ الأهمية . من رابع الخلفاء الراشدين ﷺ يشهد

---

(١) أحوذى سريع ميعة . نشاط . اضريج. كثير العرق . سلهب . طويل ممتد . شرجب طويل القوائم . انظر لسان العرب جـ ٣ ص ٤٨٦ ، والمعانى الكبير لابن قتيبة . جـ ١ ص ١٥٩ ، أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٩٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بذوق الصحابة المرهف الإحساس . ﷺ جميعا . وهو نقد معلل. نقد موضوعى .

فالشعراء جميعا محسنون . والمفاضلة ينبغى أن تكون بين شاعرين أو شعراء فى زمان واحد ويجمعهم مذهب شعرى واحد كالمديح أو الهجاء أو الرثاء . ونحوهما .

ثم يرى على ﷺ تفضيل امرئ القيس . الذى لم يقل الشعر رغبة فى جائزة ولا خوفا من عقوبة إنه ملك وسليل ملوك . فقد قال الشعر للشعر . وهذا القول أقرب الأشياء إلى القول بان الفن للفن . وهذا نقد موضوعى موجه من على ﷺ .

وعن ابن عباس ﷺ قال :

سالت الحطيئة يوما عن أشعر الناس . فقال : أمن الماضيين . أم من الباقين ؟

فقال ابن عباس ﷺ من الماضين .

فقال الحطيئة الذى يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ومن يجعل المعروف في غير أهله ... يكن حمده نما عليه ويندم

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

ومن يوف لا ينذمم ومن يهد قلبه ... إلى مطمئن البر لا يتجمجم

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ... ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

ومهما يكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وهذه أحكام نقدية ذاتية بالغة حد الجودة ! ! وكان الناس لا يحتاجون إلى أكثر من هذا !! ثم قال الحطيئة : وما الذى يقول :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

بدون ذلك ولكن الضراعة أفسدته . كما أفسدت جرولا يعنى نفسه ! ! وهو حكم نقدى دقيق أيضا ! !

ويمضى الحطيئة قائلا : يا ابن عباس والله لولا الجشع والطمع لكنت أشعر الماضين . فأما الباقون . فلا أشك فى أنى أشعرهم ! ! هذه أحكام نقدية ذوقية دقيقة ! ! وبهذا فإن الحطيئة الشاعر الناقد . يفضل من الجاهليين زهيرا والنابغة .

ويقيم الدليل على ما يقول . بذكر شىء من أشعارهما . والناس يومئذ فصحاء بلغاء يحسون باختيار المفردات والجمل والأساليب والأوزان والقوافى . والمطابقة لمقتضى الحال وصحة المعانى . وقوتها .

ولم يفصل الناقد القذ القول فيها لأنها معروفة مشهورة عند جميع الناس وأحكامه النقدية مطابقة للزمان والمكان . وبهذا يكون حكم الحطيئة أقرب إلى النقد الموضوعى منه إلى النقد الذاتى .

وقد أخذ على النابغة الذبيانى وعلى نفسه الرغبة التعيسة فى المال من ممدوحيهم .

بقوله السابق : ولكن الضراعة أفسدته كما أفسدت جرولا . ولولاها لكان جرول (الحطيئة) أشعر الماضين أيضا .

أما الباقون فهو لا يشك فى أنه أشعرهم . وحكمه لنفسه مجروح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جرحا بينا . فقد كان حسان ﷺ أشعر شعراء عصر النبوة ، وان لا ... الحطيئة ألذع الناس هجاء ! !

وأحكامه النقدية جديرة بالثناء والإعجاب ! ! والأحكام النقدية تعريفية لا يقينية ! !

وقال الشيخ عبد القاهر الجرجانى فى الرسالة الشافية فى الإعجاز :

قالوا : كان الأوائل لا يفضلون على زهير أحدا فى الشعر . ويقولون : قد ظلمه حقه من جعله كالنابغة ! قالوا : وعامة أهل الحجاز على ذلك [1]

قال ابن عباس رضى الله عنهما : سامرت عمر بن الخطاب ﷺ ذات ليلة فقال أنشدنى لشاعر الشعراء !! فقلت ومن شاعر الشعراء يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير !! قلت : ولم كان كذلك ؟ . قال رضى الله عنهما: " لأنه لا يتبع وحشى الكلام فى شعره ولايعاظل بين القول . ولا يمدح الرجل إلا بما فيه " .

وهذا أيضا نقد موضوعى لأن الفاروق ﷺ يستحسن شعر زهير ويجعله شاعر الشعراء . ثم يبين أسباب استحسانه شعره بأنه بليغ العبارات . لا يتتبع الوحشى المتنافر الغريب . ومعانيه واقعية صادقة ولا يمدح الرجل إلا بما فيه . فهو فحل صدوق ! !

هذا ولم يتفق الناس على شاعر بعينه . يجعل أشعر الشعراء (فى الجاهلية) وإنما هى وجهات نظر متعددة . فزهير أشعر الناس عند عمر وعند الحطيئة وأيضا عند ابن عباس . وامرؤ القيس أشعرهم عند

جامعة الأزهر
مكتبة كلية الدراسات الإسلامية
والعربية للبنات بالمنصورة

(١) الرسالة الشافية فى الإعجاز لعبد القاهر طبعة شاكر ص ٥٩٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على . وأبو دؤاد أشعرهم عند أبى الأسود الدؤلى وقال أبـــو عبيـدة : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب والأعشى إذا طرب وزهير إذا رغب والنابغة إذا رهب .

وقيل أشعر الناس . الملك الضليل . والشاب القتيل والشيخ أبو عقيل . كما سبق ! ! وعن يحيى بن سليمان الكاتب أنه قال : بعثنى المنصور إلى حماد الراوية . أساله عن أشعر النـــاس . فســألته . فقـــال : ذاك الأعشى صناجة العرب .

وكون القول بشاعرية شاعر معين وإمامته لجميع الشـــعراء . ظـل ذاتيا محل خلاف حتى عصر المنصور يدل على أن تفضيـــل شـاعر معين . كان يراه قوم وينكره آخرون ! !

وظل الأمر كذلك بين جرير والفرزدق فى العصر الأموى . وأبـــى تمام والبحترى فى العصر العباسى . وكان نقد الصحابة ﷺ موضوعيا أحيانا وذاتيا أحيانا أخرى . على حسب مقتضيات الأحوال .

وقد تضارب الناس فى جميع العصور تضاربا شديدا فى القـــول بـان شاعرا معينا أشعر شعراء زمانه . يدل على هذا التضارب العنيف حول المتنبى . وظل هذا الاختلاف مستمرا مع الأيام والليالى حتى يوم الناس هذا . وإلى الأبد ! !

وفى العصر الحديث قال الناس : أحمد شوقى . أمـــير الشـعراء . وأنكر هذه الأمارة فريق لا يستهان به من الأدباء والشعراء على رأسهم الأديب الشاعر الكاتب الفيلسوف عبـــاس محمـود العقـاد ومدرسـته (مدرسة الديوان) . وأنكرت هذه المدرسة أيضا عمادة الدكتور طـــه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حسين للأدب العربي . ونسب إلى العقاد أنه قال : إن صح أن للأدب العربي عمودا . فالعقاد عموده ! !

وبهذا يتبين لنا أن الاتفاق على شاعر أو كاتب يجعل أشعر الشعراء أو أبلغ الكتاب في زمانه ! ! ما كان ولن يكون ! ! وإنما هي وجهات نظر متضاربة ! ! وهذا تقريبا في جميع العصور .

والمثل العليا واضحة في نقد صدر الإسلام !! ويبدو هذا في جميع صور النقد في هذا العصر الكريم وعلى سبيل المثال لا الحصر كان بنو العجلان يتفاخرون بمآثر جدهم هذا ! لقصة كانت له في تعجيل قرى الأضياف في الجاهلية . إلى أن هجاهم به النجاشي في الإسلام. فضجروا وسبوا به . واشتكوا إلى الفاروق عمر ﷺ !

وقالوا : يا أمير المؤمنين . هجانا وقال :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر ﷺ : إنما دعا عليكم . ولعله لا يجاب !!

فقالوا : إنه قال أيضا :

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر ﷺ : ليتني من هؤلاء . ليت آل الخطاب كذلك ! أو ما يشبه هذا !!

قالوا : فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر : ذلك أقل للسكاك (الزحام) قالوا فانه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال الفاروق ﷺ :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كافى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه !! قالوا فإنه قال :

وما سمى العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر ﷺ :

كلنا عبد وخير القوم خادمهم !!

فقالوا : يا أمير المؤمنين : هجانا ! . فقال : ما أسمع ذلك !!

قالوا : فاسأل حسان ! فسأله فقال حسان بن ثابت ﷺ : ما هجاهم ولكن سلح عليهم !! وكان عمر ﷺ : أبصر الناس بما فى هذا الشعر من هجاء !! ولكنه أراد أن يدرأ الحد بالشبهات . فلما شهد حسان . سجن النجاشى . وقيل حده ! أو أصلح بينهما وهو الراجح ! ويبدو الفاروق عمر ﷺ فى نقده عملاقا كعادته دائما .

جانحا جهة العدل والإنصاف . والرحمة والمثل العليا . محاولا جبر الخاطر الذى كسره الهجاء . فمرة يقول : إنه دعا عليكم ولعله لا يجاب ! ! وثانية يقول : إن الذين لا يغدرون ولا يظلمون كرام أفاضل . ولبيتى وآل الخطاب كذلك ! وثالثة ورابعة يقول : إن البعد عن التزاحم صواب وحكمة . ومن تأكل الكلاب لحمه فهو ضائع . وخامسة يقول لهم : كلنا عبيد لله تعالى وخادم القوم سيدهم : إنه رضوان الله عليه يحاول جبر الخاطر الكسير ! ! على الرغم من كونه أعرف الناس بنقد هذه الأبيات ! !

فالقوم عرب أقحاح وذواقون للشعر والنقد . وفاهمون لرغبة الفاروق عمر ﷺ فى تطييب خواطرهم ولكن الهجاء هجاء !! هذا وقد كان الفاروق عمر ﷺ خطيب قريش فى الجاهلية والمنافر عنها . فلما شرفه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الله تعالى والناس بالإسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجا ظلت وفود العرب تقصد المدينة المنورة لطلب حاجياتها من الخلفاء الراشدين ﷺ وتستفتيهم فى الأحكام وتردد الأحاديث عن الشعر والشعراء ! !

وكان الفاروق ﷺ على دراية أخاذة بجيد الشعر ورديئه !! ومن ذلك أنه سأل يوما وفد غطفان . أى شعرائكم الذى يقول :

أتيتك عاريا خلقا ثيابى على خوف تظن بى الظنون

قالوا النابغة ! قال : فأى شعرائكم الذى يقول :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا : النابغة ! قال : فأى شعرائكم الذى يقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

قالوا : النابغة !

قال : هذا أشعر شعرائكم ! ! وهذا حكم نقدى موضوعى لأنه معلل بالأبيات السابقة !! فالنابغة فى نظر عمر ﷺ . أشعر شعراء عبس وذبيان . إنه أشعر من عنترة . ومن عروة بن الورد . ومن الشماخ بن ضرار ومن أخيه مزرد .

وعن ابن عباس ﷺ قال : قال لى عمر ﷺ : أنشدنى لشاعر الشعراء !

فقلت ومن شاعر الشعراء يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير !! قلت : يا أمير المؤمنين . ولم كان شاعر الشعراء ؟ قال : لأنه لا يتبع وحشى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكلام فى شعره . ولا يعاطل بين القول [1] وروى أنه قال : ولم يمدح أحدا إلا بما فيه !!

فالنابغة عند عمر ﷺ أشعر شعراء قومه وزهير أشعر الجميع . لأنه سهل العبارة . لا تعقيد فى نظمه . ولا وحشى فى ألفاظه .

أما معانيه فبعيدة عن الغلو . والإفراط فى الثناء .

وبهذا يكون تفضيل عمر ﷺ زهيرا عن غيره . قائما على أسس تتصل باللفظ والمعنى . فهو يشير إلى ما فى نظمه من سبك وحبك ومعان صادقة وهذا هو الجمال فى الشكل والمضمون !!

ولعله ﷺ أول ناقد تعرض للصياغة وللمعانى . وحدد خصائص كل منهما . وكان الفاروق ﷺ صحيح الاستنباط فى كل ما يخوض فيه من أحكام . شرعية كانت أحكامه أم أدبية نقدية . أم غير هذه وتلك .

تلك فطرته ﷺ التى عاش عليها فى أحضان النبوة وحتى لقى ربه رضوان الله عليه شهيدا مرضيا عنه فى محراب رسول الله ﷺ .

وكذلك كان الراشدون عليهم سحائب الرضا والرضوان .

وحدث رواة الشعر . أن الحطيئة هجا الزبرقان بن بدر بقصيدته التى منها قوله :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

واستعدى الزبرقان . عمر ﷺ على الحطيئة .

---

[1] الرسالة الشافية فى الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ٥٩٤ آخر دلائل الإعجاز تحقيق محمود شاكر . وسبقت الإشارة إلى هذا النص ص ٥٣ من هذا البحث . فى الذاتية والموضوعية !

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فجعل الفاروق ﷺ . يحاول جبر الخاطر الكسير كالعادة ويقول : لعلها معاتبة لا هجاء !! وجاء حسان . فقال قولته : ما هجاه ولكن سلح عليه !! أى هو هجاء مقذع . لا هجاء فقط . وكان مثل هذا البيت حاملا للخليفة ﷺ على حبس الحطيئة وتاديبه !! وهذا الحكم فى ذاته يعد تقديرا لشعر الحطيئة . وإفصاحا عن قوة معانيه . وشدة أهاجيه على النفوس ! ! فقد كان الرجل فى نظر الكثيرين أبرع الناس وأقساهم فى فن الهجاء !!

ولم يكن فى الشعراء المخضرمين مرعبا للناس " من الشعراء " كالحطيئة . فاستعمل معه الخليفة عمر ﷺ .أسلوب الترغيب والترهيب فسجنه ! ! ثم اشترى منه أعراض المسلمين بنفحة من المال !!

وراح الهجاء يولول فى شعره ويرجو الإفراج عنه . يقول :

أمين الخليفة بعد الرسول وأوفى قريش جميعا حبالاً
وأوسعهم فى الندى بسطة وأكرمهم حين عدوا فعالاً
تحننن على هداك المليك فإن لكل مقام مقالاً

ويقول فى انكسار أيضا :

يأيها الملك الذى أمست له بصرى وغزة سهلها والأجرع
ومنعتنى شتم البخيل فلم يخف شتمى فاصبح آمنا لا يفزع
وأخذت أطراف الكلام فلم تدع شتما يضر ولا مديحا ينفع

كان هجاء الحطيئة السابق أكثر إيلاما للزبرقان من النجاشى فى هجائه بنى العجلان . ولذلك فلم يحبس عمر ﷺ النجاشى ولم يسترضه ولم يشتر منه عرضا كما فعل مع الحطيئة !! كان النقد يومئذ يعتمد الجانب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفنى (البيان الساحر) بالإضافة إلى المثل العليا . ولقد أنكر الفاروق ﷺ على حسان إنشاده الشعر فى المسجد النبوى الكريم . فقال له ﷺ : إليك عنى فو الله إنك لتعلم أننى كنت فى هذا المكان أنشد الشعر لمن هو خير منك فما يغير على !! فقال له المطبوع على الحق قولا وفعلا : صدقت . وهذا رجوع إلى الحق وإقرار بجزالة شعر حسان . وبما فيه من مثل عليا واضحة !!

واستحسن عمر ﷺ قول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

كان كل شىء فى صدر الإسلام (عصر النبوة والخلفاء الراشدين) يقوم على المثل العليا والأخلاق الكريمة . وارتبطت حياة الناس بالقرآن الكريم ارتباطا وثيقا . وبهذا فلا عجب فى أن يرتبط الأدب والنقد بالقران الكريم أيضا .

ولهذا كان الإعجاب بالأدب فى هذه الحقبة المثالية ينصرف إلى دقة التصوير وما تحويه من مثل عليا . هى أخلاق المجتمع كله فى هذه الحقبة المضيئة المشرقة !! التى تعتبر خلاصة عمر الليالى والأيام !!

سمع النبى ﷺ قول طرفة بن العبد :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فاثنى عليه. . . وأثنى عمر ﷺ على قول سحيم :

عميرة ودع إن تجهزت غازيا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

بجودة اللفظ وروعة المعنى ! !

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وظل النقد معتمدا على جانبيه الهامين الموضوعية والميل الطبيعي إلى منتصف عصر الدولة الأموية إلا أن الاضطرابات في نظام الحكم . أدت إلى صرف الناس عن الأدب ونقده إلى حد ما . بيد أن عصر معاوية ﷺ كان عصر حيوية أدبية ونقدية !! لقربه من عصر النبوة !! وكان معاوية يتابع الفاروق عمر ﷺ في قوله بأفضلية زهير على غيره من الشعراء .

ويقول : وكان أبناه أيضا كعب وبجير من أشعر شعراء الإسلام . ومعهما معن ابن أوس رضى الله عنهم جميعا .

وكان الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وأشهر ولاته الحجاج . وابن زياد من أعرف الناس بالشعر ونقده ولم يؤثر عنهم لحن قط . ما ذلك إلا لقرب عهدهم من عصر النبوة والخلفاء الراشدين ﷺ وكان الحرص على العربية الفصحى واضحا فهى لسان الوحى ولسان النبوة ولسان العبادة يتجلى هذا من كلمة لثالث الراشدين "عثمان" ﷺ وعنهم أجمعين .

فقد قال لزيد بن ثابت وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ومن معهما أثناء جمع القرآن الكريم في عهد عثمان . . " إن اختلفتم في شيء فاكتبوه بلسان قريش فإنما أنزل القرآن بلسانهم . وكان لسان قريش جوهر البلاغة والإعجاب في الشعر والنقد أيضا . وبدا النقد يومئذ سجلا للمواهب الفطرية والمهارات التعبيرية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خصائص النقد العربى فى عصر النبوة

كان الذين عاصروا نزول القران الكريم فى عهد النبوة من أفصح الناس .

سواء كانوا مؤمنين أم كافرين . ولقد أخبر الله تعالى بفصاحتهم فى قوله تعالى : ﴿ **الرحمن (١) علم القران (٢) خلق الإنسان (٣) علمه البيان** ﴾ . والبيان . منطق فصيح يبين ما فى النفس . وأشار الله تعالى إلى فصاحة المشركين . فى قوله تعالى ﴿ **فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد** ﴾ . وحداد جمع حاد . والألسنة الحداد. هى الفصيحة البليغة . وقوله تعالى ﴿ **ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون** ﴾ خصمون صيغة مبالغة جمع خصم بفتح فكسر . والخصيم هو الفصيح المبدى خصومته بلسان عربى مبين .

وكان العرب يومئذ أعرف الناس بالشعر ونقده وكان النقد يومئذ يقوم على مراعاة البنيان الحقيقى أو المجازى على النحو الآتى :

المفردات : على معنى أن تكون فصيحة بليغة ليست مما يكره أو يعاب !!

الجمل : بان تكون مختارة منتقاة . يضم بعضها إلى بعض ضما حقيقيا أو مجازيا على أساس بليغ مقبول . وقد كان النبى ﷺ يصلح بعض الجمل لبعض الشعراء .

ولما قال كعب بن زهير :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الهند مسلول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمره النبى ﷺ بأن يكون النظم هكذا (لنور ... من سيوف الله ...) فاستجاب الشاعر لأن النبى ﷺ كان أكبر من أن يوصف بمشابهته سيفا هنديا!! . . أو غير هندى .

وعندما سال سائل عم النبى ﷺ العباس رضي الله عنه أأنت أكبر أم رسول الله أكبر ؟ أجاب إجابة بليغة مؤثرة !! رسول الله أكبر منى . ولكنى ولدت قبله !! إنها الأخلاق !! والمواهب والمهارات. . .

الأساليب : فهى فصيحة بليغة شعرا أو نثرا . لا ترى فيها عوجا ولا أمتا .

الصدق الخلقى والفنى : ويشهد له قول عمر رضي الله عنه معللا تفضيله شعر زهير بن أبى سلمى . إنه كان لا يعاظل فى الكلام ولا يتتبع حوشى الكلام . ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه. وكان ! يستحسن قول زهير :

فإن الحق مقطعه ثلاث أداء أويمين أو جلاء

التردد بين الذاتية والتعليل : تردد النقد فى عهد النبوة بين الذاتية والتعليل ومن النقد المعلل كثير من ملاحظات الراشدين رضي الله عنهم ، كما سبق !! . أما النقد الذاتى فكثير. كقول الصديق رضي الله عنه لمن قال له : لا يرحمك الله قل لا ويرحمك الله . وهكذا كان النقد فى عصر صدر الإسلام وجيزا مركزا . ذاتيا وموضوعيا أيضا .

وهكذا كان البيان العربى فى عصر النبوة . نبعا دافقا ثرارا يمد العصور والقرون بأروع ما قيل من شعر أو نثر .

هما بعد الذكر الحكيم والكلم النبوى الشريف خير ما يؤنس النفس الإنسانية فى جميع العصور . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل !!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner